جمعة الغضب: قبل أن انسى

رؤية ذاتية

محمد عبد المقصود

بعد الانطلاقة الباهرة في الخامس والعشرين، ونجاح المتظاهرين في السيطرة على ميدان التحرير لاثنتي عشر ساعة، بدأت الانباء تشير لاستعادة الأمن قبضته على الأمور وقلت أعداد المتظاهرين تدريجيا، وبدأت الصحف في الحديث عن "جمهورية ميدان التحرير التي دامت 12 ساعة" باعتبارها ماضي، لم استطع الاستمرار في المراقبة من بعيد، هكذا حسمت أمري بعد حديث ساخن مع صديقي، مناضل كفاية القديم الموجود بالولايات المتحدة حاليا، "احمد نظيم"، اعددت حقائبي كيفما اتفق في ساعة واحدة يوم السابع والعشرين صباحا، وانطلقت الى مطار فرانكفورت لأصل الى القاهرة مساءا، لاحظت خفوت القبضة الأمنية كثيرا في المطار اذ مررت من كل الاجراءات رغم كوني بحقيبتي الواحدة ولحيتى النابتة مثالا لمشبوه. ذهبت لرمسيس للمبيت في أي لوكاندة لكي أتجنب لقاء أهلي، اذ كان لقائهم يعني منعي من النزول، لكن الدولة البوليسية كانت لي بالمرصاد: ما أن رأى موظف الاستقبال بطاقتي حتى قال "ماينفعش، فيه تعليمات أمنية ماحدش يبات عندنا من نفس المحافظة! سرت في الشارع أفكر فيما أفعل، قررت الذهاب لبيتي قبل أن اؤخذ اشتباها للسجن. في الصباح أتصلت أولا بصديق الدراسة "صبري" منسق المظاهرة في المنيل لأتفق على مكان اللقاء، ثم كانت مأساة اغريقية لا داعي لوصفها لكي اقنع اسرتي بتركي اذهب.

هكذا وصلت للمنيل في منتصف النهار، مشيت الى مكان اللقاء، فوجدت اميني شرطة يراقبان المارة، نظرت حولى فوجدت شابا نحيفا واقفا في الشارع، سألته من باب التمويه: هو مستشفى المنيل فين؟ فلم يعرف، سلمت أمري لله ودخلت اقرب جامع، لا ليس جامعا، بل زاوية تسع مائة بالكاد. أدرت نظري في الجالسين، فلم أر الا ثلاثة وجوه شابة رجحت أنها تضمر ما أضمر ... شعرت بالاحباط، ثلاثة في كل جامع، وفي المنيل، قل، عشرة جوامع، لم أسمع عن مظاهرة ناجحة بدأها ثلاثون فحسب! انخفضت طموحاتي للتمثيل المشرف: سأتظاهر غالبا في شارع المنيل الهادئ الوديع الى ان يبح صوتي أو يقبض على كل افراد المظاهرة، ايهما اقرب.

مع كلمات الخطيب نصف المفوه، داخلني الشك في قيام مظاهرات من الأصل، اذ كانت الخطبة عن تجنب الفتن القادمة من الغرب (الديموقراطية والكلام الفارغ) لتهدم استقرار بلادنا الامنة، وختم خطبته بتوجيهات الى المؤمنين بحق ان يلزموا بيوتهم ويصلوا ويدعوا بدوام الامن والامان في هذا البلد المبارك، لم استطع منع نفسي من التفكير في ثمن التذكرة المرتفع، ايضيع كل هذا هباء؟ خلال الصلاة لم ادع الله الا بان لا يضيع كل هذا هباءا، ما ان فرغنا وشرعت في ارتداء الحذاء للبحث عن أي مظاهرة، سمعت صياحا رن في اذني عذبا نقيا: "الله اكبر! تحيا مصر! الله اكبر"، سارعت بالجري خارج الجامع لاجد ثلاثة رجال يدعون الناس للمسيرة، هرولت الى الشارع الرئيسي لاجد ما يقارب المائة، اغلبهم شبان، ولكن كنت ترى الشيخ والسيدة الانيقة ومن تحمل رضيعها على كتفها، انجذبت تماما مع الهتاف كصوفي أخذته الحضرة، كمن وجد نفسه ... نفسه المثقلة بشعور الذنب اذ يدعو أهله ان ثوروا بينما يرفل هو في أمان أوروبا ... „الشعب يريد اسقاط النظام!" ... النظام الذي حرمنا من ال „رغيف، حرية، كرامة انسانية!“، „الشعب يريد اسقاط النظام!" ... النظام الذي جعل من الفكهاني في أول شارعنا مخبرا يتراذل على الذاهب والغادي، الذي حرم جيراني في الشارع المقابل من ال „رغيف، حرية، كرامة انسانية!“، حتى دفعهم لكره عيشتهم وانفسهم وحتى لكرهنا نحن المستورين، النظام الذي نفى احد اتابكته (كبار مماليكه) أبي، المدير المالي، عن منصبه عندما لم يسهل له الوصول لخزائن المال العام، النظام الذي وضع أغا (مملوك صغير الرتبة) بذيئا

احرز بالكاد 50% في ثانويتة على باب جامعتي ليعترض طريقي ويكاد يشتبك معي فقطلان „الكارنية بتاع السنة اللي فاتت“، „الشعب يريد اسقاط النظام!" الذي جلب علي ضحكة التونسي القميئة في ألمانيا، وقلة ذوق اللبناني في مطار بيروت، عندما علموا باني مصري ... „الشعب يريد اسقاط النظام!" فقط لكي „تحيا مصر!"، حددت ساعتها دوري في المظاهرات اليوم، سأكون حنجرة تبقى نار الهتافات مشتعلة ما أمكنني ...



على الجانبين وقف اصحاب المحلات، الخارجون من الصلاة، الاتيات من السوق، الواقفات في الشرفات، ينظرون في فضول ودهشة ... بعد خطوات قابلت "صبري"، كان يخاطب جماعات المتفرجين: "ضموا علينا مستنين ايه؟ احنا مابنقولش غير تحيا مصر! خايفين ثلاثين سنة، هنخاف تاني لحد امتى؟" اكثرهم اعفى نفسه بالطريقة المصرية : مانا باقول اهو! ثم يردد هتافين من مكانة الى ان نمضي، على اننا بعد دورتين في الشارع وجدنا اننا ثلاثمائة أو يزيد. وهنافقط تعلمت ان المظاهرة كائن حي ... جني اذا جاز القول، يمكنك بجهد وبعض التعازيم أن تحضره، ولكن ما ان يخرج من الزجاجة حتى يصير خارج السيطرة، والا، من اوحى لنا ان ننطلق الي شارع قصر العيني، المثقل بوزارة، وقسم

شرطة، ومقر للحزب الحاكم، وقريب بصورة مقلقة من وزارة الداخلية ومجلس الشعب والسفارة الامريكية، في الطريق الى ميدان التحرير، بينما نعلم يقينا ان عددنا غير كاف، وان الميدان الان اشبه بثكنة عسكرية، مصيدة دون مخارج بالمعنى الحرفي؟ لكنك لا تقدر ان تتخلف عن المظاهرة،

هكذا مشينا صوب كوبري السيالة، اعترضنا صف من الامن المركزي، ومعهم رئيسهم، رائد، كان "صبري" أول المتفاوضين، وهتفنا جميعا اثباتا لحسن النوايا: سلمية! سلمية! بعد اخذ ورد، فتح الرائد الشاب الصف واشار ان نعبر بسرعة! اخذ حظه منا بان صفقنا وصفرنا له، و"تحيا الشرطة ويا الشعب!“ بينما اخذ حظه من رئيسه العقيد بشخطة "بتكسر اوامر؟؟!!“

تجاوزناهم وعبرنا الكوبري الى بداية شارع قصر العيني، عند أول نقطة حصينة، قسم الشرطة، وجدنا مصفحتان... كنت في صف متقدم نسبيا، نظرت خلفي فوجدتنا زهاء ثلاثة الاف، نصفنا من الكهول والنساء والشيوخ ... لم أر تحرشا بفتاة، وعندما حاول البعض



الوقوف فوق السيارات أو الدق على الدكاكين، أو القاء الحجارة على جنود الأمن، كان ينهر ممن حوله ويتوقف لتوه، تمتمت في سري: ربنا يتمم بخير! كنت امل ان يتسع عقل النظام الضيق ويترك من يريد التظاهر دون عنف، لكن تقديراتي لذكائهم كان مبالغا بها، اذ سرعان ما بدأ الجنود في استفزاز الصف الأول، جذبوهم الى الحواجز الحديدية وأوسعوهم لكما، بينما عربة المطافئ ترشنا بالماء لتفرقنا، كان لا يزال الفيديو في ذهني: الفتى النحيف يقف بمواجهة عربة مماثلة في شبرا، ويحتمل الماء دون ان يتزحزح الى ان اجبر الوحش الحديدي على التوقف، في لحظة تقمص وقفت أمام السيارة مع عشرة ممن قرروا الثبات، اغرقتنا المياة لكن الباقون اطمأنوا وعادوا الى الاصطفاف معنا. فبدأ قصف القنابل المسيلة للدموع. كان أكثر الناس

مثلي بلا خبرة في المظاهرات، لذا شاع الذعر مع سقوط القنابل، والعمى المؤقت الذي تسببه، وازداد الذعر   مع بدء الشرطة في استخدام الرصاص المطاطي(وسرت شائعات بانهم يستخدمون رصاصا حيا)!



 لم نستطع منع من شرعوا يقذفون الشرطة بالحجارة، لقد بدأ الأمن المركزي بالعنف وافسدوا علينا مظاهرتنا السلمية، كان الموقف يزداد خطورة مع تكثيف القصف وشيوع الذعر بين المتظاهرين، استغل الأمن المركزي الدخان وانعدام الرؤية تقريبا وبدأ يطاردنا! هكذا وجدت نفسي أركض في شارع جانبي لخمس دقائق، الى ان ابتعدت عن المطاردين، نظرت حولي فوجد فقط عشرين متظاهرا معي، تعرفتهم لانهم هم من كانو يقذفون الأمن بالحجارة! „كملت!“ هكذا فكرت، مشينا على غير هدى في الشوارع الجانبية، كانت كل الطرق الرئيسية ملغمة بالأمن المركزي أو المخبرين. وكان عددنا صغيرا بدرجة خطيرة، سيارة بوكس واحدة تكفي لضمنا جميعا ... جمع كل منا حجارة للمقاومة حال القبض علينا، وحين بدأت باليأس من النجاة، فضلا عن الوصول للتحرير، جاء الفرج! مظاهرة مئوية رأيناها من بعيد، فأنضممنا اليها جريا كالمجانين، لقد نجونا! عدنا ثانية لأمان الالتحام بالناس! عثرت على "صبري" ثانية، كان الان يعرج اذ اصيب بعيار مطاطي في قدمة، وقابلت نفس الشاب النحيف الذي سألته في الصباح، "محمد كمال" أو "كمال" كما ندعوه.

 كنا على مشارف حي السيدة زينب، قررنا السير في الشوارع هناك لكسب متظاهرين جدد، الشوارع التي ذكرتني بال"وراق"، البنايات الفقيرة نصف المطلية، متفاوتة الارتفاع،



المقاهي والورش المتناثرة، والوجوه الناطقة بشظف العيش، اخذنا الحماس ثانية في الهتافات،"ضموا علينا يا اهالينا، الحرية ليكو و لينا"، النشيد الوطني، و"يا أغلى اسم في الوجود"، مازالت اذكر وقع الناس اذ يردون "يا مصر“، لم اشعر بأي من الاغاني الوطنية مثلما شعرت بها في تلك الساعة، كانت النساء العجائز يقفن في الشرفات ويرفعن ايديهن للسماء دعاءا لنا، ولم تنقصنا المياة اذ القى لنا الاهالي بزجاجات المياه، والخل والبصل كذلك للتعامل مع القنابل المسيلة للدموع، بعد نصف ساعة من الهتافات المحمومة نظرت خلفي فلم أر نهاية الشارع! كانت المظاهرة الان تسد الأفق، حرفيا. قرر الزعماء ، وهم الان شباب السيدة زينب، التوجه الى قسم الشرطة القريب (هل كان هذا قسم السيدة؟)، وهكذا وقف الجمع عند القسم، ودونة صفوف الأمن المركزي المعتادة، و المصفحتان اياهم، بدأ قصف القنابل المسيلة للدموع، لكن هذه المرة كانت الجموع رابطة الجأش وجاهزة للمواجهة، ما رأيته كان وسام شجاعة على صدور أهلنا في الاحياء الشعبية، الجموع فقط تبتعد بكل رباطة الجأش عن موضع سقوط القنبلة، ويهرع لها شاب مكمم فيلتقطها ويعيدها قذفا الى صفوف الأمن! وحين بدأوا استخدام الرصاصات المطاطية بكثافة (كنت اقف جوار عمود نور، حين سمعت رنه ارتطام رصاصة بعيدا عن وجهي بسنتيميتر واحد!) بدأ شبابنا في قذف المولوتوف على الشرطة، لم تمر عشرون دقيقة حتى انسحبت قوات الامن على عجل، واقتحم البعض قسم الشرطة.



عند ذلك قررنا، "صبري"، "كمال"، واخرون ان نعود، اذ خرجت الأمور عن نطاق المظاهرة السياسية، مشينا الى محطة ميترو الجيزة، حيث ركب بعضنا عائدا لبيته، بينما سمعنا نحن عن تجمع مظاهرة ضخمة مجددا في شارع قصر العيني. قررنا نحن الثلاثة ان ننضم للمظاهرة، حين وصلنا رأيت المشهد مجددا، الشارع العريض يجيش بالمتظاهرين الغاضبين الذين لم يعودوا يهتفون للرغيف والحرية والعدالة الاجتماعية، كانو يهتفون الان لاسقاط مبارك والنظام، الذي ضربهم بقنابل الدخان والرصاص المطاطي، والحي في بعض المناطق، فقط لأنهم خرجوا يطالبون بحقهم بكل تحضر! „يسقط يسقط حسني مبارك"، "يا جمال قول لابوك كل الشعب بيكرهوك"، "حسني مبارك ... باطل! جمال مبارك ... باطل"، والهتاف العظيم "الشعب يريد اسقاط النظام" الذي مسح عار هتاف منافق حقير على نفس الوزن "بالروح، بالدم، نفديك يا فلان!". كان الأمن المركزي يقاتل بضراوة لمنعنا من التقدم، لكننا ثبتنا عند كل نقطة دافعو عنها الى ان تنفذ قنابلهم، فيتراجعون الى النقطة الحساسة التالية، ونكسب نحن أرضا جديدة.تجاوزنا قسم الشرطة ووزارة التضامن، ثم قابلنا دفاعا عنيفا عن مقر الحزب الوطني، كانت التعليقات تتركز حول كم القنابل المسيلة للدموع، التي اشتروها من اموالنا، فقط ليهدرونها في قمعنا. طال الانتظار هذه المرة ولم تنقطع قنابلهم لحظة واحدة، لم تؤثر في كثيرا لحسن الحظ، على أن بعضا من زملائنا كانوا حساسين لذلك الغاز، فانشغلنا في معاونتهم ... حين بدا ان قنابلهم أوشكت على النفاذ (نعرف هذا حين يضربون قنابل صوت أكثر من قنابل الدموع) اخترقت سيارة اسعاف الشارع، افسحنا لها الطريق، فاخترقت صفوف الأمن وغابت في الميدان، بعدها بدقائق عاد سيل القنابل اكثر ضراوة! استنتجنا أن السيارة كانت معبأة بالذخيرة، قررنا أن نفتش أي سيارة مماثلة ،جاءت

الاخبار بوجود مدرعتين مع قوة أمن في أول شارع قصر العيني تسدان طريق العودة، توترت الأعصاب ، بعد ساعة من القصف المتواصل أتت سيارة اسعاف اخرى اجبرها المتظاهرون على التوقف ففر السائق، ووجدو فعلا قنابل بداخلها، كانت الظلام قد بدأ يخيم والأعصاب ملتهبة، فلا عجب أن حطم المتظاهرون السيارة، واستخدموها لسد الطريق من ظهرنا، واستخدموا حواجز في سد الطريق من الأمام لمنع الأمن من الاطباق علينا، نفذت قنابلهم فانسحبوا الى اخر خط دفاع، دون ميدان التحرير! ما أن كسبنا أرض مقر الحزب الوطني حتى دخل الحزب شباب متحمسون وتسلقوا المبنى نحو هدفهم: صورة عملاقة لحسني مبارك مع عبارة قاتلة مما عذبنا بها الحزب منذ قرون، شئ على غرار "معا من اجل الاستقرار والتنمية"، برز الفتى من الشباك وشرع يجاهد لخلع الصورة المستفزة، بينما وقف اغلب الناس ينتظرون السقوط مع بعض التعليقات: „ولع فيها، ولع“، "هههه مش عارف يوقعه!“، "الازق ابن الذين!“، "حتى في دي؟“، ثم هتاف جماعي "ارحل! ارحل! “ الى ان رحل، عن جدار حزبه على الأقل، تجمهرنا عند خط دفاعهم الأخير وصار الميدان في مرمى البصر، تكثف القصف كلما حاولنا اختراق خطوطهم الى الميدان، كانت الساعة تدنو على الثامنة مساءا، وكنا نجر أرجلنا جرا وبحت أصواتنا من الهتاف طول النهار، كما زادت حالة ذوي الحساسية سوءا، فجلسنا، ستة شباب متعبين، في شارع جانبي لنستريح، كانت الاخبار ترد "اسكندرية اتحررت، في ساعة واحدة جمعوا مليون، فالشرطة سلمت!“، "السويس اتحررت!“. وفي السماء ظلت طائرة حربية تحوم جيئة وذهابا فوقنا ... بعدها بدقائق كان المشهد الصادم، الشارع يزخر بالابرياء،وفي ثانية واحدة مرقت السيارة البيضاء بأقصى سرعة وارتطمت بكتلة من البشر، تطايرت الاجساد المغدورة واكملت السيارة طريقها قبل ان تستقر الاجساد على الأرض! تحول الشارع الى مشهد مأسوي، صرخات من كل صوب ومجموعة من الناس يركضون خلف السيارة، لم اجرؤ على القاء النظر ... حاولنا في ثورة الغضب تلك اقتحام الميدان، فجاوبونا بمزيد من الغاز المثير للدموع، والرصاص المطاطي، نالنا التعب ثانية فعدنا للجلوس في الشارع الجانبي، لاحظنا ان قصفهم الان لا ينقطع، لست أدري لم تذكرت في تلك اللحظة مشهد وزير الداخلية (كمال الشناوي) في فيلم (الارهاب والكباب) حين حسم أمره وهدد "الارهابي“ : <الرهائن اللي عندك دول شهداء، ابرار، وهنصرفلهم معاش الشهدا ... الحكومة مالهاش دراع عشان يتلوي!>، نعم، لست اضمن شيئا مع هذه الحكومة، يمكنهم أن يحاصرونا هنا ويقضوا علينا جميعا أو يقبضوا علينا جميعا ... في تلك اللحظة قال" صبري": "يا جماعة اخلصوا النية!“ وكانت تلك خير نصيحة، قرأت ما احفظ من القران وحاولت التماسك، لكني حين ذكرت دموع امي في الصباح وهي ترجوني ألا اذهب، ووعدي لها بالرجوع، لم أملك نفسي في دمعتين ودعوت الله ان ابر بوعدي ... حين قاربت الساعة التاسعة احسسنا تغيرا في الجو ... مازال القصف بنفس الكثافة لكن شعورا بدأ يسري بأن الحصار لم يعد كما كان، دون اتفاق قررنا جميعا اننا متعبون ولن نفيد اكثر اليوم، فقررنا ان نمشي بكل هدوء من الشوارع الجانبية عودة الى المنيل، سرنا حثيثا الى ان وصلنا لكشك مفتوح وصاحبه وزوجته يشاهدان تلفازا، تلمسنا منهما الأخبار فزفا لنا الخبر المفرح، غير المؤكد مع ذلك: الجيش نزل الشارع! لم أصدق في البداية، الشائعات تملأ البلد في هذه الظروف، لكنهما أكدا أن الشوارع الرئيسية الان امنة، اتخذنا طريق العودة، والساهرون أما التلفاز في الشارع يحيونا "يا أبطال، الله ينور"، لهثت انفعالا حين رأيت الدبابات للمرة الأولي في الشوارع، يعلوها جنودنا السمر بثيابهم النظيفة ووجوههم الواثقة، لقد فشلت الداخلية ونزل الجيش حقا الى الشارع! الله اكبر وتحيا مصر! يسقط الأتابك عن جواده ويزحف مبتعدا قبل أن يسحقه بحافره، يخلع الأغا حلته الرسمية ويتوارى عن الأنظار، يعود المخبر الى بيع فاكهته غير قادر على رفع عينه في أحد ... اليوم، واليوم فقط، هزمنا - نحن، أصحاب البلد - جهاز المماليك!